الغربة الفكرية في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري

الأستاذ : بشير أعبيد
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب و اللغات
جامعة جيجل- (الجزائر)

ملخـــص:

شغل موضوع الاغتراب الكثير من الدارسين وحمل في طياته أقسى التجارب مرارة سواء ارتبطت هذه الأحاسيس المؤلمة بالغربة عن الوطن أو الغربة منه، ليستشعر الشاعر المغترب مرارة الفقد وفراق الأهل والأنيس، ويزداد ذلك قسوة أمام فاجعة الاغتراب بين الأهل، هذا الاغتراب الذي طالما خلّف حزنا عميقا لدى الشعراء وخاصة عند امتزاجه بالإحساس بالظلم والقهر، ليلجأ إلى العزلة كبديل عن الاندماج، فيبدو بذلك غريبا ومغتربا – أو ربما- ضائعا على المستوى النفسي والفكري، فتتغير السيرة من إقبال على الدنيا إلى إعراض عنها. وهو ما سنتناوله في هذه الورقة مسقطا على بعض النصوص الأندلسية في القرن الخامس الهجري.

Abstract

Filled theme of alienation many scholars and carries within it the toughest tests bitterness, whether associated with this painful alienation from home or alienation sensations, to feel the poet expatriate bitterness of loss and parting parents and amiable, and up to and including cruelty to the tragedy of alienation between parents, this alienation which has long behind deeply saddened by the poets especially when blended a sense of injustice and oppression, to resort to isolation as an alternative to the merger, it seems so strange and expatriate - or maybe- lost on the psychological and intellectual level, so habit changes from devoting to life till leaving it. It is taken up in this paper projected on some Andalusian texts in the fifth century.

فرّق أبو حيان التوحيدي بين الغربة المكانية والغربة الفكرية جاعلا الأولى أقل حدة من الأخرى وأخف قسوة، يقول: «غريبٌ نَأى عن وطنٍ بُنِي بالماء والطين وبَعُد عن أُلّافٍ له عهْدهم الخشونةُ واللّين، ولعلّه عاقرهم الكأسَ بين الغدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحَدَقِ المِراض؛ ثم إن كان عاقبة ذلك كلّه إلى الذهاب والانقراض،[...] فأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان»1، ويربط قسوة الغربتين بدلالات الانكسار والمذلة وانتفاء الاعتداد بالنفس جاعلا « الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة»2. ويبقى الاغتراب خصيصة إنسانية ملازمة للوجود البشري نفثت بها صدور أصحاب الحساسية القوية يصعب إيجاد معنى محدد له، ولم يباين الشاعر الأندلسي في القرن الخامس الشعراء المغتربين قبله، فهو يشاركهم الطبيعة المرهفة التي تدفعه إلى أن يكون من أكثر الناس تحسسا بأقذاء الحياة وأشواكها « والأديب بطبيعته يتصف بعدم القناعة، وعدم الرضا عن ذاته وعن سواه، ويمكن التأكيد بأن الأدب والشؤم كانا متلازمين دوما، ومن قبل كان أبو العتاهية وأبو تمام وابن الرومي ثم المتنبي والمعري»3، وتضاف إلى القائمة أسماء شعراء الأندلس؛ فطبيعة النفوس واحدة تجمعهم وإن اختلفت الأماكن والأزمنة بتلهفها وبنزعاتها المتوثبة لتتركهم « يجنحون في حياتهم إلى التمرد، ويغدون أكثر تجاوبا مع جوانب الحياة المظلمة وصدماتها المؤلمة»4، وعمق إحساسهم بألم الغربة أحزانهم ومآسيهم.

ولعل من أوضح الأسباب التي دفعت الشاعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري إلى استشعار قساوة الاغتراب؛ اضطراب الموازين واختلال القيم التي هزت المجتمع الأندلسي- مطلع القرن الخامس- معاناة كبيرة لدى عدد من الشعراء؛ فقد جاء« حكام تقلدوا أمور البلاد دون مؤهلات تؤهلهم لذلك، وهؤلاء قربوا إليهم من هم على شاكلتهم، الأمر الذي جعلهم يكيدون إلى غيرهم، وطالت المكائد الشعراء الذين أحسوا بالقلق والغربة في بلادهم » 5 .

هذه الغربة التي عانوا منها فكريا نتيجة كساد سوق أدبهم، وضياعه بين الأهل والوطن، والتهميش الذي حلّ بالفئة المثقفة، وقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الهزيمة صورا متعددة« تبدأ بذم الزمان الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء، ثم بذم أهل زمانهم وكشف ما

هم عليه من عيوب ومثالب لم يسلم منها حكامهم وذوو الشأن في المجتمع، ليصلوا من ذلك إلى التعبير عن ضياع مكانتهم، وعدم الاعتراف من قبل مجتمعهم بما يتميزون به من خصال وصفات لا يعرف من حولهم قيمتها، ولا يقدرون أصحابها حق قدرهم» 6 .

تتولد آلام الشاعر الأندلسي من تيقنه أنه يبقى دائما أكبر مما يعترف له به، وأعلى منزلة من المنزلة التي وضع فيها، ويشكو عدم قدرته في هذا الجو الاغترابي الوصول إلى بغيته، وإلى ما يستحقه، وهو ما يعرف باغتراب التفوق أو الثقة بإمكانات الذات « فالمغترب يستشعر رغم ضياعه وانسحاقه وحرمانه مما يستحق أنه يعتلي ثمة هؤلاء الناس الذين يمثلون وجها متشابها واحدا وصوتا واحدا مهما تباينوا في الظاهر، والذين لا يؤثرون كثيرا في الوجود إذا غابوا»7، فيعي الشاعر/ المغترب بأن وجوده بين أناس اعتلوا أعلى المراتب مقتنصين رداءة الزمن وتفشي الجهل فيه وكساد سوق الأفاضل، وهو ما عبر عنه الشاعر ابن سعيد الأنصاري8، يقول: 9

كانَ الزمانُ وكان الناسُ أشبَهَه اليوم فَوضَى فلا دهْرٌ ولاناسُ

أسافِلٌ قد علَتْ لم تعلُ عن كرمٍ ومُشرفاتُ الأعالي منه أنكاسُ

يدعو الشاعر إلى الترحم على العهود السابقة التي لم تشهد هذا الاختلال الذي احتل فيه الأسافل – غصبا - أعلى المراتب، وفي المقابل ينال الشرفاء – قسرا - حضيضها، وذلك حين يوسد الأمر إلى غير أهله .

ويبحث الشاعر غانم بن وليد10 في أهل زمانه فلا يراهم إلا مطبوعين على الشر، ولعل في ذلك نظرة تشاؤمية هي في حقيقتها صورة قاتمة قد لا تكون إلا صورة لنفس الشاعر المغترب مما يبعدها عن حقيقة الواقع « وليس العقل كالمرآة الصاحبة التي تعكس صور الأشياء كما هي تماما، ولكنها كالمرآة الملتوية التي تمزج صورة نفسها بصور الأشياء التي تصورها، فتصيبها بالفساد والتشويه» 11 فقد تكون نظرة هذا الشاعر الأندلسي المغترب إلى أهل زمانه هي في حقيقتها صورة لنفسه المغتربة، يقول: 12

هون عليك فقد مضى من يعقل والبس من الأخلاق ما هو أفضل
وإذا خبرت الناس لم تلف امرأ ذا حالة ترضيك لا يتحــول
ما بالهم –نكبت بهم آمالهم- كلٌ يعيب ولا يرى ما يفعـل
فمساتر ضعفت قوى آرائه ومجاهر يرمي ولا يتأمـل
ومقلـد متعاقل متـأدب وإذا اختبرت فباقل هو أعـقل
ومن الغرائب من يقارع في النهى أهل البصائر وهو فيهم أعـزل

ففي دعوته إلى تهوين المصاب الجلل بعد أن أصبح الزمان يحتم على الناس التغير و التقلب لا إلى الأحسن ولكن إلى الأسوأ ما يدل على صوت الهزيمة المتجلي من تكرار النفي: لم تلف – لا يتحول- لا يرى- يتأمل. وما فيه من تعميم وإطلاق يتمركز حول معاني الجهل والتقزز و النكبة، وهو ما يدفع الشاعر المغترب إلى العزلة لا يتخطاها ولا يحاول تغييرها وهو ما عبرت عنه النصيحة المستفادة من تجربة الاغتراب(هوّن) .

ويذهب السميسر13 إلى أبعد من ذلك ويعلن هزيمته تجاه جموع الناس في موقف اتخذه ضد البشر حين أقر عجزه عن التكيف مع من حوله، يقول : 14

رأيت بني آدم ليس في جموعهم منه إلا الصور
فلما رأيت جميع الأنام كذلك صرت كطير حـذر
فمهما بدا منهم واحد أَقُلْ: قُلْ أعوذ برب البشر

وتبرز الأبيات نظرة اغترابية تمتزج بالزهد، وهو ما فسره بعض الباحثين في علم النفس حين خلصوا إلى: "أن شعور الإحباط الذي يستجدي له أغلب الناس بالعدوان قد يؤدي ببعض الأفراد إلى نوع من الاستكانة والجمود، أو الانسحاب وانعدام النشاط، وذلك أن الفرد قد يتبين أن المقاومة لا تجدي فيعمد عندئذ إلى الانسلاخ من الموقف»15. وهذا النوع من الزهد يتسم بالتشاؤم واليأس، وفيه تصاب النفس بالكآبة والسخط على الحياة

وأهلها، ويفهم من تيقن الشاعر/ المغترب أن الانقباض (أجلّ شيء): إن الإنسان الانقباضي تقوى عنده نزعة الزهد في الحياة كلما زادت مظاهر الفساد فيها، ففي« عصور الاضطراب السياسي يفقد الناس طمأنينتهم، ولا بد لهم من ملاذ يهرعون إليه ويلقون فيه بأثقالهم وينسجون في عالمه خيام الطمأنينة والاستقرار، ويجدون فيه العوض والراحة»16، وهو ما يستخلص من دعوة الشاعر(إلى السلامة- سالمهم- دعهم- خلاصك)، ليكون:

الانقباض ـ سلامة- خلاص= نظرة اغترابية ـ زهد تشاؤمي .

ويتجرع الشاعر مرارة تفوقه وهو الذي اعتقد أنها سترفع مقامه وتحمل إليه نسائم النعيم، فإذا به يدفع ضريبة هذا التفوق، وقد عم الجهل وجوده، وتنكر له الزمان، وضاق منه المكان، يقول ابن الحناط 17ساخطا على رجحان كفة الجهل على كفة العلم: 18 (من الكامل)

لم يخْلُ من ثَوَبِ الزمان أديبُ كلاّ فشأنُ النائباتِ عجيبُ

وإذا انتهيت إلى العلوم وجدتها شيئا يُعدُّ به عليك ذنوبُ

وكذاك من صَحِبَ الليالي طالباً جِدّاً وفهماً خانَهُ المطلوبُ

لقد أسند الشاعر انكسار الفئة المثقفة وهزيمتها إلى الزمان الذي أصابها بنائباته، وحرم على النجباء حقهم في النعمة ورغد العيش إيحاءً منه بالاستسلام والرضوخ؛ فقد اتسم العصر بتفشي الظلام والجهالة، وكل ما هو مشرق فه يتوارى ليحل محله الخراب تحدثه كثرة النائبات التي صيرت طالب العلم مقترف ذنوب(وإذا انتهيت إلى العلوم وجدتها شيئا يعد عليك ذنوب)، فينكمش العلم ليتسع الجهل. هذه الآفة التي يرى ابن شهيد19 أنها أصبحت إحدى الفضائل في عصره، قال : 20 (من الطويل)

كأنَّ الدّجَى همّي ودمْعي نُجُومُه تحدّر إشفَاقًا لدهرِ الأرَاذِلِ

هَوتْ أنْجُمُ العلياء إلا أقَلَّها و غبْنَ بما يحظى به كلّ عَاقِلِ

وأصبحْتُ في خَلْفٍ إذا ما لمحتُهُمْ تَبَيّنْتُ أنّ الجهلَ إحدى الفضائِل

وما طابَ في هذي البَرِيّةِ آخِرٌ إذا هُوَ لم يُنْجَدْ بطيبِ الأوائِلِ
أرى حُمُراً فوق الصواهل جَمّةً فأبكي بعَيْنِي ذُلَّ تلك الصواهل
[...] وناقِلِ فقْهٍ لم يرى اللهَ قلبُه يَظنُّ بأنَّ الدِّين حِفظُ المسائِلِ
حُبوا بالمُنَى دُونِي وغُودِرْتُ دُونَهُمْ أَرُودُ الأَمانِي في رِياضِ الأَباطِلِ

فسخط الشاعر/ المغترب على ما آل إليه حال مجتمعه الذي حركه الإحساس بالمرارة بين أناس أطلق على زمنهم اسم (دهر الأراذل) جعله يصف الدواء الشافي وذلك بالرجوع إلى دهر الأوائل بعد أن يئس من الاختلاط بأناس اتخذت الجهل فضيلة (تبينت أن الجهل إحدى الفضائل)، وفي هروبه من الواقع المزري بالاتجاه نحو الماضي الحامل لذكريات السعادة والتواصل ما يبرر عدم قدرته على التكيف المعمق للإغتراب، فقد كانت « رؤية الماضي الجميل وبعث الذكريات العذاب بلسما لجراح ذلك المغترب وبردا على قلبه المشوق[...] إنه يستعيد صفحة مشرقة كان الدهر قد بسم له فيها وأذاقه حلاوة العيش» 21، وهذه السعادة– وإن أوقفت غربته- ستكثف من معاناته بعد أن يعود إلى معايشة الواقع ويسوءه ما يرى من ذل الأحصنة عندما امتطتها الأحمرة؛ في إيحاء منه إلى إسناد الأمور لغير أهلها، وحلول الأراذل مكان الأفاضل، وهو ما يعمق إحساسه بالهزيمة لكون مجتمعه صرف عنه النظر، ولم يقدره حق قدره؛ ويعلن الهزيمة ويعيش غربة فكرية داخل المجتمع كونه يمتلك علما وفهما ومجدا يتميز به بين سفهاء لا يكنون سوى العداوة له ولأمثاله، وهو الذي حاول جاهدا مسالمتهم غاضا الطرف عن صفاتهم الذميمة التي جبلوا عليها، يقول: 22

أَرى أَعْيُناً ترنُو إليّ كأنَّما تُساوِرُ منها جانِبِيَّ أَراقِمُ
أَدورُ فلا أَعْتامُ غيْر مُحارِبٍ وأَسْعى فلا أَلْقَى امْرأً لِي يُسالِمُ
ويجْلِبُ لِي فَهْمِي ضُرُوباً مِن الأَذَى وأَشقَى امْرِئٍ في قَرْيَةِ الجهْلِ عالِمُ

وأَوْجعُ مَظْلُومٍ لقَلْبٍ وذِي حِجىً فَتى عَربيٌّ تزدريهِ أَعـاجِمُ
غَنِيتُمُ على ما تزعُمونَ عن الورى لقد سَفِهَتْ تِلْكَ الحُلُومُ الزَّوَاعِمُ
سلامٌ عليكم لا تحيةَ شـــاكِرٍ ولكنْ شجىً تنسدُّ منه الحَلاقِمُ

ويصرح بالسبب الذي جعل الآخرين يناصبونه العداء، ويتربصون به تربص الحية بفريستها:(ويجلب لي فهمي) الذي أورثه أنواعا من المصائب التي لم يأت على ذكرها (ضروبا من الأذى) مستدلا على ذلك بعبارات تدل على الغربة الفكرية التي أصبحت تعانيها الذات/ العالمة/ المهزومة وسط الجماعة/ الجاهلة/ الهازمة من جهة (أشقى امرىء في قرية الجهل عالم - فتى عربي تزدريه أعاجم)، ويقر بالعجز عن المواجهة والإخفاق في الاندماج والتأقلم من جهة أخرى، مما آل به إلى الاعتزال والانقباض حاملا معه ألمه وحسرته :

سلامٌ عليكم لا تحيةَ شاكِرٍ ولكنْ شجىً تنسدُّ منه الحَلاقِمُ

وتتوالى صورة غربة الفاضل لدى بعض الشعراء حين يدركون أن طبقة من الجهّال الذين امتلكوا الجاه والمال احتلت مكانتهم، وأصبحت الثروات في أيديهم وإن عدموا الفضائل؛ « طبقة ليس لها رصيد من نسب أو علم أو فضل، هي ثمرة ضياع القيم، وانقلاب الموازين في عصور الفتن، بل كانت مما أذكى الفتنة وأشعلها، ولعبت دورا كبيرا في تقليص دور الشعراء والمفكرين ومكانتهم الاجتماعية»23، فتعمّق الإحساس لديهم بالتهميش والضياع، وراحوا يندبون سوء الحظ، ويتعجبون من زمان وصل حالهم فيه إلى ما وصل إليه، على نحو ما عبر عنه الشاعر سليمان بن محمد المهري24، قال : 25

عجبتُ لمعشرٍ عزُّوا وبزُّوا ولم يصِلُوا إلى الرُّتبِ السَّوَامِي
طلبتُ بهم من العدْمِ انتصاراً فأَشبهْتُ ابنَ نُوحٍ في اعْتِصامِي
تقلّبَ دهرُنا فالصقرُ فيه يُطالِبُ فَضْلَ أرزاقِ الحَمَامِ
على الدُنيا العفاءُ فقد تَنَاهَى تَسُرُّعُها إلى أيْدِي اللِّئَامِ

فالفضائل والغنى ابتعدا عن المثقفين، ووقفا إلى جانب الجهال، ومن أراد الغنى في مجتمعهم وفي زمانهم هذا فليكن جاهلا أو متجاهلا وتعم النظرة المتشائمة المحبطة متجاوزة الواقع المزري لتدعو إلى النفور من الدنيا(على الدنيا العفاء) التي استشعر الشاعر/ المغترب بشاعتها، فينقلب الإقبال على الدنيا والتعلق بها إلى إعراض عنها، وزهد فيها بعد أن زال عنها الانسجام والتوافق بارتفاع الرذيلة، وانحدار الفضيلة، وهو ما حملته العبارة(أيدي اللئام) .

ويتجاوب صوت ابن سارة الشنتريني، وهو يفجع بواقعه الظالم للأفاضل، يقول : 26

عابُوا الجهالةَ وازدَرُوا بحقوقِها وتَهَافَتُوا بحديثِها في المَجْلِسِ

وهي التي ينقادُ في يدِها الغِنَى وتجيئُها الدُّنيا برغمِ المِعْطَسِ

إنّ الجهالةَ للغِنَى جَذّابَـةٌ جَذْبَ الحديدِ حِجَارَةَ المَغْنَيْطَسِ

ويكون الجهل مكافئا للسعادة في هذا العصر الرديء، « فلكي تكون سعيدا ينبغي أن تكون في جهل الشباب، لأنه لم يعلم بعد ظمأ الرغبة الذي لا ينطفئ وما ينجم عنه من بلاء ولم يعلم أيضا أن الرغبة حتى لو تحققت فليس في تحقيقها نفع ولا ثمرة ثم هو لم يستيقن بعد أن خاتمة الجهاد ليس منها مفر»27، ليكون الجهل أو التجاهل في زمن ينقم على الأفاضل المغتربين، وهو ما عبر عنه الأعمى التطيلي28 مهنئا الجهّال لجهلهم الجالب للغنى، يقول : 29

رأيتُ الغِنى وقفًا على كلِّ جاهِلِ فيا عينَ ذِي الجهلِ انعمي ثَمَّتَ انعمي

أما ابن الزقاق البلنسي30 فقد أحس بأن الدهر قد أعطاه دون ما يستحقه، وبما أنه امرؤ لا يحب النفاق فقد اخذ منه الخمول كل مأخذ، بما أن الحياة امتلأت نفاقا، يقول: 31 (الوافر)

وفيما قد بلوت من الليالي عزاء أن يلازمني الخمول

دوائرها ترفَّع كلَّ نذلٍ وتخفضُ من له مجدٌ أثيل

كما حلَّت وهادَ الأرض أسدٌ وحلتْ في بواذخها وعول
وقد نلت التجمّل في زمان قبيح عند أهليه الجميل
شراب المعلوات به سراب ومنتجع الندى طلل محيل
وأعلام المودّة طامسات فلا عيش يَسُرُّ ولا خليل
وأيّ أخي إخاءٍ لا يداجي وأيُّ حليفِ عَهْدٍ لا يحول
تقلّ محامدي لولاة دهري لأنَّ الفضل عندهمُ قليل
عنيت بوصفهم فقصدتُ ذمّاً ليسلم من غلوٍّ ما أقول

لقد جنح الشاعر إلى الخمول، وفضّل الاغتراب عن مجتمعه بدل الاندماج فيه ومسايرته، وكل هذا بسبب الإحساس بالظلم الذي صوره في مشهد مفعم بالظلم والقهر والذل داخل مجتمع تغيرت فيه فلسفة الحياة؛ إذ أصبح يرفع من الأنذال ويحط من الأمجاد (ترفّع كل نذل ، تخفض من له مجد).

وتتواصل صور اليأس الذي تملك الشعراء من تمكن ظاهرة الجهل في المجتمع، وتستمر معه انتقاداتهم التي لم تعد – في أغلب الأحيان – تجدي نفعا مع من أُشربوا في قلوبهم الجهل، وهو ما عبر عنه ابن خفاجة32، في قوله : 33

دَع عَنكَ مِن لَومِ قَومٍ لَستَ تَخبُرُهُم إلاّ تَكَشَّفَ سِترُ الغَيبِ عَن عَيبِ
عوجٌ عَلى الدَهرِ هوجٌ غَيرَ أَنَّهُمُ سودٌ مِنَ الجَهلِ بيضانٌ مِنَ الشَيبِ 34

ليعرض الشاعر بطائفة من الناس تتصف بالجهل والغباء؛ فهم لا يصغون إلى ناصح ولا يأبهون بلائم، استعصوا بحماقتهم على الدهر حتى كساهم الجهل من ظلامه وألبسهم الشيب من بياضه .

ويستمر الشاعر في تركيز عدسته الاغترابية التي لا ترى من الكأس إلا نصفها الخاوي

لتنقل صور مأساة الجهل الذي لف الكون من حوله، واستولى على القلوب، ويحمل على الجاهل بشدة، وينصحه بالبكاء بدل الضحك، ويصف حاله بأرذل الصفات، قال: 35

يا ضاحِكاً مِلءَ فيهِ جَهلاً أَحسَنُ مِن ضَحكِكَ البُكاءُ

وَهَنتَ حِسّاً وَهُنتَ نَفساً فَلا ذَكاءَ وَلا زَكاءُ

ويعلو صوت الاغتراب رافضا عقد صلح مع الآخر الذي يحمل دلالات تعمق الهوة بين الشاعر ومن حوله، ويقف عند ضرورة الانفصال عن هذا الوجود القاتل، يقول أبو بكر بن بقي36 منتقدا مظاهر اختلال القيم التي استشعر معها الفاضل وجوده في المكان غير المناسب، وفي الزمان الجائر، وبين أهل يهملون قدره، يقول: 37

أَقَمْتُ فيكُم على الإقتارِ والعَدمِ لو كنْتُ حرًّا أبيَّ النَّفسِ لم أُقِمِ

وظَلْتُ أبكي لكُمْ عُذرًا لعلّكُمُ تستيقظون وقد نِمْتُمْ عن الكَرَمِ

فلا حديقتكُمْ يُجنى لها ثَمَرٌ ولا سماؤكُمْ تنهلّ بالدِّيمِ

ما العيشُ بالعلمِ إلا حيلةٌ ضعُفَتْ وحرفةٌ وُكِلَتْ بالقُعدُدِ البَرَمِ38

لقد عبر الشاعر عما يتخبط فيه من الذل والهوان لما أقام عند قوم لم ير منهم سوى الشح والبخل، وطول انتظار بلا فائدة. وتظهر هزيمة الشاعر من خلال العبارات الدالة على الندم عن الإقامة بين هؤلاء الناس(لو كنت حرا أبي النفس لم أقم)، وإيحاءات الذل(وظلت أبكي لكم عذرا)، ثم العبارات الدالة على اليأس و خيبة الأمل(فلا حديقتكم يجنى لها ثمر ولا سماؤكم تنهل بالديم)، ثم التوجه إلى لوم النفس لاحترافها مهنة العلم التي أصبحت من اختصاص القاعدين المنعزلين عن الناس، وتلك قمة الهزيمة.

وفي صورة مأساوية أخرى من صور الاغتراب الحامل لبذور الهزيمة المفعمة بآلام الضيم، وخيبة الأماني، وقحط الآمال، يقرها ابن برد الأصغر39 في قوله : 40

قَرَعْنَا بالكتابةِ بابَ حـظٍ لندخُله فزاد لنَا انغلاقا
فلم تبلغْ بلاغتُنَا مُنَاها ولا مدَّ المِدَادُ لنا ارتِقَاقا
ولا راحت تقرطِسُ بالأماني قراطيسٌ أجدنَاها مسَاقَا
وقلَّمتِ المطالبُ من حُدَاها لنا أقلامَنَا ساقاً فساقا
فلا هطلتْ على الآدابِ مُزْنٌ ولا برحَت أهِلَّتُها محاقَا
وعُوّضْنا بما نَدْرِيه جهلاً لعلّ السّوقَ مدركَةٌ نَفَاقا

إن المحنة التي حلت بالفئة المثقفة نتيجة الإهمال، واللامبالاة من طرف المجتمع جعلت الشاعر يفوض نفسه للشكوى باسم أمثاله من الأدباء؛ معمما تجربته لتشمل البقية الباقية من الأفاضل الذين كسدت تجارتهم امام ارتفاع أسهم الجهل والجهال، ويبرز الصورة الحقيقية التي أضحت عليها حالهم، فرأى أن العي طغى على البيان، وتفوقت الإساءة على الإحسان، ولم يعد يرى ما يسره، واستمر توقف الإبداع نتيجة الظروف السيئة التي أضحت تكبحه .

وترتفع عقيرة أحد شعراء القرن الخامس متسخطة مما يؤرقها ويجعلها تفتقد الانتماء لترى الموت أشهى من حياة الاغتراب المحققة للانفصال عن الأحبة وافتقاد أخلاق الطفولة البريئة، وتتبدل نظرة الشاعر المغترب في الحياة والموت، وترتكز على النبذ والإفراد، ويستخلص معها فاجعة الوحدة ومصاب العزلة، ويصور الفراغ الرهيب الذي أحدثه غياب الآخر عنه وهو ما عبر عنه غلام البكري41 في قوله : 42

نعيمٌ أرى الأيـام تُثْنِي عَنَانَهُ علينا إذا ألقى ثَنِـيَّتَهُ الحِسْلُ
نكرتُ الدُّنَا فالأهلَ فليسَ لِي بها عَقْـوَةً آوي إليها ولا أهْلُ
وأفْرَدَنِي صرْفُ الزّمانِ كأَنّنِي طريدٌ من الهنديّ أخْلَصَهُ النَّصْلُ
فيا ليت شعري هلْ مَقَامي لنِيّةٍ تَصِيحُ لِنَجْواها المَطِيّةُ والرَّحْلُ

وسيٌّ يُخلي المرءَ منهُ قريبُهُ فَرِيدًا كـمَا خَلَّ تَرِيكَتَهُ الرَّأْلُ
فَكَمْ منْ حَبِيبٍ كانَ روْضَةَ خَاطِرٍ يَرِفُّ ويَنْدَى بيْنَ أفْنَانِهَا الوَصْلُ
ضَحًى ظِلُّهُ إذ كوِرَتْ لِي شَمْسُهُ فَشَـخْصُ نَعِيمِي لا يَؤُومُ لهُ ظِلُّ
غَبَرْتُ وبَادُوا غـيْرَ أنَّ تَلَبُّثِي وَرَاءَهُمْ عَيْشٌ يَلَـذُّ لَهُ القَتْلُ
إذَا كانَ عيْشُ المرْءِ أدْهَى مِنَ الرَّدَى فَفَائِدَةُ الأيَّامِ دَاهِيَةٌ خَتْلُ43

والشاعر يلحن أبياته على قيتارة الحزن واليأس وألم الغربة وتعمق هذه الألحان أحاسيسه الشاكية إذ « ما بلغ من نفس المغترب أقسى من تجربة الاغتراب»44، ويعتمد خصيصة ترديد النفي (ليس لي- لا أهل – لايؤوم له ظل) مرتبطة بالإنكار والإفراد والإثناء والإخلاء (نكرت- أفردني- تثني- يخلي) ما يجعل الغربة معادلا للانتماء والضياع وهو ما كررته هذه الوحدات المعجمية وإن تباينت الألفاظ فهي تجتمع في تأكيد هواجس غربة الفاضل التي تدفعه إلى تمني الموت لما يمثله من خلاص من حياة لا فائدة منها.

لقد كانت ردود أفعال الشعراء إذن متفاوتة إزاء ما كابدوه من متاعب داخل مجتمعاتهم؛ إذ منهم من أحس أنه متفوق ولكن الدهر لم ينصفه، ومنهم من آلمه تمجيد الأنذال مقابل التفريط في أهل المعرفة والعلم، مدركا ذلك بحساسيته الثقافية العالية، ليتطّلع – تبعا لذلك – إلى « الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه»45 ومنهم من نغّص الجهل والغباء عليه حياته، وهو المتطلّع إلى حياة أفضل، إضافة إلى الشح والبخل وأمور أخرى جعلت الشعراء يشتركون في حس الاغتراب الذي تمخّض عن وعيهم الناضج واليقظ، جعلهم يعيشون بين جلدتهم بأجسادهم لا بأرواحهم وأفكارهم .

الهوامش والمراجع والمصادر

1- أبو حيان التوحيدي. الإشارات الإلهية. تح: عبد الرحمان بدوي. وكالة المطبوعات الكويتية.دار العلم بيروت ط1. 1981. ص113 .

2- أبو حيان التوحيدي. المصدر نفسه. ص 114 .

3- عمر الدقاق. ملامح الشعر المهجري. منشورات جامعة حلب. سوريا. 1987.ص60.

4- المرجع نفسه. ص238 .

5- محمد سعيد محمد. دراسات في الأدب الأندلسي. منشورات جامعة سبها- ليبيا. ط1. 2001 ص 169، 170.

6- أشرف علي دعدور. الغربة في الشعر الأندلسي. عقب سقوط الخلافة. دار نهضة الشرق. جامعة القاهرة. ط1. 2002. ص 119.

7- كميلية عبد الفتاح. الشعر العربي القديم. (دراسة نقدية تحليلية لظاهرة الاغتراب). دار المطبوعات الجامعية. الإسكندرية. مصر. 2008.ص61.

8- هو أبوعبد الله محمد بن سليمان بن عبد الواحد الأنصاري. من أهل مالقة ولي قضاءها مدة، كان أديبا شاعرا، توفي سنة 500هـ. انظر: النباهي، أبو الحسن بن عبد الله. تاريخ قضاة الأندلس. تح: ليفي بروفنسال. القاهرة 1948م. ص100.

9- النباهي. المصدر نفسه. ص 100 .

10- غانم بن وليد المخزومي المالقي (ت470هـ)، قال فيه ابن خاقان: "عالم متفرس، وفقيه مدرس، وأستاذ مجود، وإمام لأهل الأندلس مجرد. وأما الأدب فكان جل شرعته وهو رأس بغيته، مع فضل وحسن طريقة، وجد في جميع أموره وحقيقة". انظر: ياقوت الحموي. معجم الأدباء. تح: عمر فاروق الطباع. مؤسسة المعارف. بيروت. ط1. 1999. 7: 188

11- أحمد أمين وزكي نجيب بدوي. قصة الفلسفة الحديثة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.(دط،دت). 63/1.

12- ابن بسام. الذخيرة. 1/ 2: 869، 870.

13- هو خلف بن فرج الإلبيري، أبو القاسم، الملقب بالسميسر، من أعلام الشعراء في عصر ملوك الطوائف، اشتهر بالهجاء، له كتاب لقبه: شفاء الأمراض في أخذ الأعراض، مجهول المولد والنشأة. انظر ترجمته: ابن بسام الشنتريني .الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. 1: 2: 882 .

14- ابن بسام. المصدر نفسه. 895.

15- عبد الستار محمد ضيف. شعر الزهد في العصر العباسي. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. ط1. 205. ص 136.

16-المرجع نفسه. ص137 .

17- هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الرعيني، البصير، المعروف بابن الحناط (ت437هـ)، كان متقدما في الآداب والبلاغة والشعر، مدح الملوك والوزراء والرؤساء، وكان يناوئ أبا عامر بن شهيد، ويعارضه، وله معه أخبار مذكورة. انظر ترجمته: الضبي. بغية الملتمس. ص75، الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر. جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. ضبط وشرح: صلاح الدين الهواري. شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع. ط1. 2004. ص64 .

18- المقري. نفح الطيب. 3: 288، 289 .

19- هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأندلسي القرطبي. ولد في القسم الشرقي من مدينة قرطبة في حي مينة المغيرة، في الدار المعروفة بدار ابن النعمان سنة 382هـ. نشأ نشأة مترفة في قصر أبيه الوزير عبد الملك، وشهد عز أبيه في ظل دولة العامريين .أصيب أبو عامر بن شهيد في أواخر أيامه بمرض الفالج وظل يعاني منه حتى وافته المنية سنة 425هـ، ولم يتجاوز الثالثة و الأربعين من عمره. انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تح: إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1968. ج1.ص 116، ابن الأبار،

(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القصاعي). الحلة السيراء. تح: حسين مؤنس. دار المعارف. القاهرة-مصر. ط2. 1985. ج1 ص238 .

20- ابن شهيد. ديوانه ورسائله. تح: محي الدين ديب. المكتبة العصرية. صيدا-بيروت. ط1. 1997. ص 111، 112 .

21- عمر الدقاق. ملامح الشعر المهجري. ص 96 .

22- ابن شهيد. ديوانه ورسائله. ص 117، 118 .

23- أشرف علي دعدور. الغربة في الشعر الأندلسي. ص 129 .

24- هو سليمان بن محمد الصقلي، من أهل العلم و الأدب و الشعر، قدم الأندلس بعد 440هـ، ومدح ملوكها، وتقدم عند كبرائها بفضل أدبه، وحسن شعره. ينظر: الحميدي. الجذوة. ص 216.

25- الحميدي. المصدر نفسه. ص.207 .

26- ابن خاقان(أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي المشهور بابن خاقان). قلائد العقيان ومجالس الأعيان. تح: حسين يوسف خريوش. مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع. الأردن. ط1. 1989.ص 270 .

27- زكريا إبراهيم. مشكلة الفلسفة. مكتبة مصر. (دت، دط). ص72. وهو ما قاله الفيلسوف المتشائم شوبنهاور.

28- هو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، شاعر من شعراء الأندلس المبرزين، له ديوان شعر كبير، ويعرف باسم التطيلي الإشبيلي، وتطيلة موطن أهله وإشبيلية دار هجرتهم، كنّي أبا جعفر وأبا العباس، ولد ضريرا فلقب بالأعمى، وعاش في عصر ملوك الطاوئف، فأدرك دولة بني عباد، ثم لمع اسمه أياميوسف بن تاشفين. ، انظر ترجمته: الضبي. بغية الملتمس. ص234، الصفدي. الوافي بالوفيات. تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. دار إحياء

التراث العربي للطباعة والنشر. بيروت- لبنان. ط1. 2000. 7: 226، ابن بسام. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تح: إحسان عباس. الدار العربية للكتاب. ليبيا-تونس. ط1. 1978. 2/ 2: 728 .

29- الأعمى التطيلي. ديوانه ومجموعة من موشحاته. تح: إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت- لبنان. 1963.ص 174.

30- هو أبو الحسن علي بن عطية بن مطرف اللخمي البلنسي بن الزقاق البلنسي. اشتهر بالغزل والمدائح. ولد في بلنسية سنة 490هـ وتوفي في 528هـ. ينظر: ابن الزقاق البلنسي. الديوان. تح: عفيفة محمود ديراني. دار الثقافة بيروت-لبنان. ط1. 1989.ص3، 4.

31- المصدر نفسه. ص231، 232 .

32- هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله حفاجة (450 - 533هـ)، ولد في جزيرة شقر من أعمال بلنسية شرقي الأندلس، كان صاحب لهو ومجون في شبابه، فلما تقدمت به السن أقلع عن الغواية وسلك سبيل الرشاد إلى أن توفي في بلدته شقر. انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان. 1: 56 .

33- ابن خفاجة. الديوان. تح: عمر فاروق الطباع. دار العلم للطباعة والنشر. بيروت- لبنان. (دط، دت). ص47 .

34- العوج: الانعطاف فيما كان قائما فمال كالرمح والحائط، وعوج الدين والخلق فساده. الهوج: الحمق. ينظر: اللسان. مادتي عوج ، هوج .

35- ابن خفاجة. الديوان. ص16 .

36- هو أبو بكر يحي عبد الرحمان بن بقي الأندلسي القرطبي، شاعر من أهل قرطبة، اشتهر بإجادة الموشحات، ت:532 هـ على الأرجح .انظر: صلاح الدين الصفدي. الوافي بالوفيات. 3: 201 .

37- المقري (أبو عبد الله أحمد بن محمد المقري التلمساني). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر. بيروت-لبنان. ط1. 1998. 4: 237 .

38- الديم: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق.القعدد: صفة للنسب، وقوم قُعدٌ، لا يغزون ولا ديوان لهم .

البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر.

39- هو أحمد بن محمد بن برد الأصغر، أبو حفص الكاتب له "رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما" وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، ذكر الحميدي في الجذوة أنه رآه في ألمرية بعد الأربعين والأربع مائة. انظر: الحميدي. الجذوة. ص118، الضبي. البغية. ص153. ابن بسام. الذخيرة. 1/1: 488، 489.

40- ابن بسام. المصدر نفسه. ص 489.

41- هو حكم بن محمد بن عبد العزيز البكري، أبو عبيد (ت 487هـ)، أديب شاعر، كان مولعا بالخمر، له مدائح في المعتمد بن عباد. انظر: الضبي. البغية. ص285. ابن بسام الذخيرة. 1/2: 232 .

42- المقري. نفح الطيب. 3: 183 .

43- الحِسْل: ولد الضب حين يخرج من بيضته، يقال: لا آتيك سن الحسل: أبدا. [لأن سنّه لا تسقط أبدا]. شهاب الدين أبو عمرو. القاموس الوافي. مراجعة وتصحيح: يوسف البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت – لبنان. ط1. 2003. ص 212.

الرّأل: فرخ النعامة – الختل: الخداع.

44- عمر الدقاق. ملامح الشعر المهجري. ص238 .

45- نخبة من أساتذة الجامعات، إعداد وتقديم عبد الله أحمد المهنا، نازك الملائكة، دراسات في الشعر والشاعرة، شركة الربيعان للنشر والتوزيع بالكويت. ط1. 1985. ص 465 .